

تأملات في رواية جبرا ابراهيم جبرا

«السفينة»

بقلم هورج سالم

(سفينة الهركيوليز) والزمان المحدود الذي تدور فيه تلك الاحداث (ايام قليلة) .

ان مهمة قارئ الرواية - ومهمة الناقد كذلك - لا تتوقف عند تلقي الاحداث ومتابعتها ، بل هو مدعو الى اعادة بناء الاحداث في ذهنه ، وهو مدعو الى الاسهام في اعادة تكوين هيكل الرواية بعد ان يفرغ من قراءتها . وهذا ما يعطي الرواية ، في اعتقادي ، كثيرا من جدتها واصالتها . فنحن نصفي في الفصل الاول مثلا الى عصام السلطان وهو يتحدث عن البحر وعن رحلته هذه - وما اكثر ما يتحدث ابطل هذه الرواية - ويفاجأ عصام السلطان بوجود لى مع زوجها الطبيب فالح عبد الواحد حسيب في السفينة : « ماكنت لاعرف ان لى ، لى نفسها ، لى المسكينة ، لى الباكية بعض الليالي ، الفسادة باهلها من اجلي ، الضاحكة على عيني ، لى ستكون ايضا هنا . » ومن خلال هذا المونولوج الطويل الذي يختلط فيه الحاضر بالماضي ، حيث تمتزج محاوره الناس على ظهر السفينة بذكريات قديمة نتعرف اهم شخصيات الرواية ، ونتعرف البيئة التي جرت فيها الاحداث ، وي طرح الروائي احدي الثوابت التي تشد اواصر الرواية كلها : علاقة عصام السلطان بلى عبد الفنى . فهذا المهندس العراقي الذي احب لى ذات يوم واحبته ، هو اليوم هارب من لى على ظهر هذه السفينة . فكيف يجدها فيها ؟ « لقد لحقت بي الى المكان الوحيد الذي كنت اظنه في مأمن منها » اصدفة هذه ؟ اتصميم ؟ املاحقة ؟ الغائبة ؟ اما كفانا ما فعلناه وقلناه قبل ان نتزوج ؟ صدفة لعينة ...) لقد نشأت بين عصام السلطان ولى عبد الفنى علاقة حب عنيفة ، ولقد تحطمت هذه العلاقة اذ تزوجت لى من الدكتور حسيب . « العطش يذكرني دائما » بلى . حتى اسمها يحرك اغوار العطش في . وقد كان حينا عطشا وبقي في جفاف العطش . (1) (وما عصام ، في نهاية الطاف ، الا انسان هارب ، عجز عن تحمل الحياة في بلدته فلاذ بالفرار . اما تفصيلات هذه العلاقة والاسباب التي حالت دون زواج عصام من لى ، ومغامرات لى مع عصام في انكلترا يوم كانا طالبين هناك يدرس هو الهندسة ، وتدرس لى الفلسفة ، فستتداعى في ذهن عصام في فصول لاحقة .

ويتوقف عصام عند مسافر تعرف اليه في السفينة هو وديع عساف ، فلسطيني يقيم في الكويت ، ويعمل في التجارة . وستمثل

نستطيع ان نقول دون تردد او مفلاة ان رواية « السفينة » لجبرا ابراهيم جبرا هي رواية جديدة كل الجدة ، ولا سيما بالنسبة الى الادب الروائي العربي . بيد ان السؤال الحقيقي الذي ينبغي ان يطرح في صدد الحديث عن هذه الرواية هو السؤال التالي : اين تتجلى جدتها ؟ افي موضوعها ام في دراسة الشخصيات ام في طريقة بنائها الروائي ؟ ام في هذه العناصر مجتمعة ؟ ذلك ما نسعى للاجابة عنه في دراستنا لهذه الرواية .

فما الموضوع الذي تطرحه هذه الرواية وما الهدف الذي ترمي اليه ؟ وما التكنيك الفني الذي لجأ اليه الكاتب لينقل الينا هذا العالم الفني المصطبخ المتنازم بخلفياته المعقدة العميقة ؟ والحق ان هذه الرواية لا تفصح عن موضوعها بيسر وسرعة . فلا بد للقارئ ان يبذل كثيرا من الجهد والاناة والصبر كيما يصل مع المؤلف في الفصول الاخيرة الى كنه موضوعها بسبب الطريقة الخاصة التي عرض بها الروائي روايته . ولسنا نزعم انها طريقة مبتكرة بالنسبة الى فن الرواية ، واذا كانت رباعية الاسكندرية للورنس دوريل قد اثرت في فتحي غانم (الرجل الذي فقد ظله) وفي ميرامار نجيب محفوظ (ميرامار) فاننا نجد في هذه الرواية ملامح واضحة من اسلوب وليم فوكنر وفنه الروائي . الا ان هذا التأثير لا يفقدها ما تتمتع به من اصالة وصدق وحرارة في الاسلوب وسيطرة بارعة على التكنيك .

تبدو الرواية ، اول وهلة ، عرضا لرحلة بحرية يقوم بها عدد من الاشخاص على ظهر هذه « السفينة » التي تنتقل بهم في موانئ البحر المتوسط . ويسلط الروائي الضوء على عدد منهم ، في طليعتهم لى عبد الفنى ، والدكتور فالح حسيب وعصام السلطان ، ووديع عساف ، واميليا فرنيزي ، الى جانب بعض الشخصيات الثانوية الاخرى كمحمود الراشد ، ويوسف حداد والدكتورة مها الحاج .

تتألف الرواية من فصول يتناوب الكلام فيها كل من عصام السلطان ووديع عساف على التوالي من بداية الرواية الى منتهائها ، ويفسح الروائي المجال مرة واحدة لاميليا فرنيزي لتسرد فصلا من الفصول . وقد اتاحت هذه الطريقة للروائي ميزتين اثنتين : اولاهما الاعتماد على ضمير المتكلم في صياغة الرواية ، مما يسر له ان يظهر ابعاد الشخصيات من الداخل ، وثانيتهما المضي بنا مع الابطال ، في العديد من المرات الى ماضيهم البعيد في المكان والزمان فتغلب بذلك على مشكلة السكان المحدود الذي تجري فيه احداث الرواية

(1) السفينة ص : ٣٠

هذه الشخصية دور الضمير الذي يرقب الاحداث والعلاقات في الرواية . ان عصام يروي طرفا من احاديثه وآرائه وفلسفته في الحياة ، وسرعان ما نستشف في اقواله الاما عميقة ، يسوح بها في لوعة وحرقة . فهو يشكو من الغربة ، غربة الانسان عن وطنه وأرضه . « لعنة واحدة هي اوجع اللعنات : لعنة القرية عن ارضك سل الفلسطينيين سل الفلاح الذي يذكر تجرح قدميه على تلك الارض كأنه يذكر لذة حياته الوحيدة ، كأنه يقول ان حياته ، بعد ان ابعد عن أرضه ، ما عادت حياة . »

وننتقل في فصل ثانٍ لنستمع الى وديع عساف يتحدث عن الرحلة والسفينة ، وعن حياته وعمله . لقد صار رجل اعمال رغما عن انفه : « اصعدت ارضي في القدس واكتسبت مكتبا للاستيراد في الكويت . نفيت عن جنوري وكوفئت عن نفيي بالبيع والشراء . » كذلك يحدثنا عن علاقته بالدكتوراه مها الحاج التي تعرف اليها في بيروت ، وهو لم يقم بهذه السفارة الا لانه ظن ان مها ستراقبه بل انها هي التي حجزت له مكانا في السفينة ثم تركته للبحر وحده بعد خصام عنيف بينهما ، وعن طريق التداوي يتحدث عن عصام السلطان الذي عرفته به اميليا فرنيزي من اصدقاء مها في بيسروت . ويعود الراوي هذه المرة ، - عن طريق التداوي كذلك - الى ماضيه السحيق ، الى طفولته ويتوقف عند صداقته بفتى من ابناء فلسطين هو فايز عطا الله ، في صفحات رائعة تنبض بالالم والحب ، وتصور تفتح نفس ذيك الفتى في القدس ، واستشهاد هذا الفتى الرسام الصغير . ان عودة وديع عساف الى هذه الذكريات وحديثه عن صديقه وتصويره لوقائع ما حدث في الخامس عشر من ايار سنة ثمان واربعين تبدو لنا من اعمق ما كتب في هذا الموضوع واجمله واغناه . ففي كل سطر من سطوره نبض الواقع الليم والتجربة الحادة والصدق الرائع .

فاذا عرفنا شخصية كل من عصام السلطان ووديع عساف في ابرز خطوطها وملامحها عاد بنا الروائي الى ماضي عصام ، وانسه لماضي مثقل بالدم والنار ، يكشف عن ملح بارز من ملامح المجتمع العربي : فلقد قتل والد عصام السلطان اجد اقرانه جواد الحمادي بسبب صراع حول الارض ، فاضطر ان يهرب ويقضي حياته كلها متخفيا ينتقل من مكان الى مكان وكانت هذه الجريمة سببا في بؤس الاسرة وسببا في نمزق عصام . « لماذا قتل ابي جواد الحمادي وانزل بحياتي لعنة مازلت اعاينها ، تمرد وقاتل ثم عاش منفا عنا . الكل قال : حسنا فعل . لقد رفع رؤوسنا . لا بأس ولكن الآلهة ظلمت تطالب بالانتقام ، وعلى نحو مهين . فرضت عليه الحياة بعيدا عنا ، وجعلت منه مجرد اسطورة . ولم تستنكف من ان تفقدني المرأة الوحيدة التي احببت - وتبقيني معلقا بها من بعيد ... » .

على هذا النحو نخطو خطوة جديدة في معرفة علاقة لي السيدة البغدادية الجميلة بعصام السلطان وزوجها الطبيب . وتمهد لخاتمة الرواية المفجعة حادثة انتحار احد المسافرين الذي رمى بنفسه في البحر . ويعود عصام السلطان الى الحديث المسهب ، فيتحدث عن وديع عساف الذي سيطرت شخصيته على نفسه ويتكهن بوجود علاقة له بالفدائيين ، كما يتحدث عن الدكتور فاج وصلته به التي تعود الى ايام الدراسة ، وعن القرابة التي تجمع بين الطبيب وزوجته وتنضح شيئا فشيئا علاقة عصام بلمى ، هذه العلاقة التي تعود الى ايام الدراسة في انكلترا ، وتكون ، في رأينا ، العمود الفقري للرواية والخيوط الذي يجمع بين الفصول فيها والاحداث كلها . ويتوغل الروائي في دراسة شخصية الطبيب ونفسيته ومشاعره ، فاذا هو انسان ناغم على المجتمع وما فيه من كذب ورياء ، وتحمل نغمته ورؤيته للحياة كثيرا من التشاؤم والياس القاتل وادانة لطبقته

المثقفين في المجتمع . يقول : « اف ، هؤلاء الكذابون . الصحفيون يكذبون . الادباء يكذبون . السياسيون يكذبون . الاساتذة يكذبون . نفاق لا نهاية له . يتحدثون عن الانتهازية ! اعطني ما أريد وخذ ما تشاء من كلام ، شتيمة ، مدح ، يكفي ان تكذب مرتين او لثلاثا لتستمرىء الكذب . يخافك الناس ، لانهم يعرفون انك بارع في الكذب . والكذب يجر الى المزيد من الكذب ، عاليا وسافلا وفي كل اتجاه ، واذا الحياة كلها تتقلب على النظار والنزع والدجل ، ويصبح رأس اللسان اخطر من رأس الرمح ، كيف استطيع والحالة هذه ان اقرأ جريدة ، ان اسمع خطبة وطنية او سياسية او اجتماعية؟ الكلمة تعني عكسها ، والعكس لا يعني شيئا ، والكل يعلم انه يكذب . اكلب عليك وتكذب علي ، والشاطر من يجعل كذوبته اروع ، او افظح ، او افتك - حسبما تقتضيه الظروف - والظروف مؤاتية لخمسين نوعا من الكذب . هذا يقول انه يؤمن بالحرية : انه يكذب ، انه يهين لك ذنائة . وذاك يقول انه يؤمن بالشعب : انه يكذب . راجع حسابه في المصرف بعد مدة . انظر الى البيت الذي ابتناه في هذه الاثناء . الى فتاتي العطر التي تراكمت على منضدة زوجته اوخيلته . وكلما انقلبت الاحوال ، ظهرت فئة جديدة من الكذابين . والصادق واحد في الالف ، ضائع ، مستخف ، ساذج ، حائر ، بانسر ، لا يفهم لماذا لا يتقدم في الحياة ... (1) »

واذا كان الروائي قد اختار ان يبدأ الرواية من نقطة قريبة من نهايتها فلا بد من عودات عديدة الى الماضي لتتضح علائق الاطسال بعضهم ببعض . واذا يوح عصام السلطان بماضيه كله نصل الى ذروة الرواية : « ضحكت الآلهة عندما جعلت ابي يطعن جواد الحمادي بخنجر في قلبه ، على رصيف مهوى في الكرخ ، وبعد ذلك بعشرين عاما ارسلت ابنة اخيه تنصيديني في مرفص للطلاب في لندن . » لقد كان هذان الشبان متحابين اذا . وقد امضيا اياما بالغة العنوبة في انكلترا . ولكن هنالواقعا رهيبا قاسيا كان ينتظرهما ، هو ارث قديم من العادات العشائرية القبلية ، وكان هذا الارث اقل من ان يتحدياه او يصمدا امامه ، وهكذا كان من المستحيل ان يتزوجا . فبين الاسرتين ، رغم اواصر القرابة التي تشدهما ، نار دام، وهكذا افترقا ، ولهذا تزوجت لي من الطبيب ذي المستقبل الواعد .

بيد ان لي ظلت على محبتها لعصام ولم تنفصم صلاتهما ، لقاء عابرا او مخابرة سريعة . لم تكن تتقابل الا سرا ، بعد ان لنجا السي الف خديعة . واذا علمت لي انه مسافر في هذه السفينة تاركا عمله في العراق ، مصمما على العمل في انكلترا ، حجزت لها ولزوجها مكانا فيها . وتكشف الحقيقة لعصام . فهذا الانسان الياس الهارب تلاحقه لي كاتبا قدره . « لكنك افسدت علي كل شيء . انا هارب منك . منك بالذات . الا ترين ؟ انا هارب من اشياء كثيرة . من الجنون . من الطوفان ، من كل ما كان جزءا من تركيبتي الداخلي ... كم مرة تحدثنا بالتلفون ؟ كم مرة التقينا ، وكأنا غريب ، نتصافح نتصافح الغريب ، ونتخاطب بتفاهات الغريب ؟ وطعم شفتيك على شفتي لا يزول ولا يخف . وعندما استطعت الهرب ، دبرت ملاحقتي حتى فسي هزيمتي . لي ، انك رهيبه . (2) »

واغتنم العاشقان ارساء السفينة في نابولي ليتخلفا فيها ثم ليذهبا وحدهما يقضيان النهار فيها وحدهما . وها هي ذي المأساة تقترب من نهايتها . وان شخصية اميليا فرنيزي التي كانت تظهر عرضا بين حين وآخر في تضاعيف الرواية ، لتأخذ الآن كل ابعادها . فهي تحدثنا في هذا الفصل الوحيد المخصص لها عن علاقتها القرامية

(1) السفينة : ص ١٢٠ .

(2) السفينة : ص ١٨٠ .

بالدكتور فالح حسيب الذي ابرق اليها من بغداد ان تحجز لها مكانا هي هذه السفينة بعد ان اقتضته زوجته لى بالسفر .
ويتخلف الدكتور واميليا متعللين ببعض الاعذار عن مرافقة ركاب السفينة الذين فرروا الفيام برحلة يزورون فيها معالم جزيرة كبري وانارها ، كيما يناح لهما ان يقضيا النهار معا وحدهما . وتأتي الصرية العاصمة في مدينة نابولي : لقد رأى الطبيب زوجته مع عصام السلطان بينما كان هو جالسا مع اميليا فرينزي في احد المغاهي . نقول اميليا : رايت فالح ينظر الى الرصيف الاخر من الطريق ويصمق . نظرت الى حيث انجبت عيناه ، ورايت لى وعصام يسيران ذراعا بذراع مهرولين نحو المدينة . لم تكن دهشمي كبيرة ، غير ان فالح فقد السيطرة على نفسه ، وحتسبت انه سينهض في الحال ويركض في انهما . امسكت بيديه ، واذا هما تنتفضان . اصفرت وزاعت عيناه . ولم يقل شيئا . (١) ويتفجر كل الم الطبيب فيرتمي صامتا على احد اسرة الفندق الذي نزل فيه .

وبطلنا الوصول الاخيرة بانتحار فالح ، ونعرض لنا مذكراته واعترافيه ورسالته الى لى . وفيها يوح بكل ضعفه وائله ، بنمائه وعريه وسوداوينه وباسه العال السريع .

وتعود لى مع عصام السلطان وثمان زوجها الى بغداد ، بعد ان قطعوا رحله الحياة والنحى والموت في هذه السفينة .

ان فيهم هذه الرواية لا تتجلى في الحدث الانساني المتور الذي ترويه وحسب ، بل في دراسة الشخصيات دراسة عميقة مستأنية تظهر كنافهم السيكولوجية وتغلبانهم النفسية وصراعاتهم الداخلية ، واضطرابانهم واهتمامانهم ومشاكلهم وما يجول في نفوسهم وخواطرهم ، في قلوبهم وضعفهم وسخيمهم ويعينهم وحجبهم ويقضهم واملهم ويأسهم ، وموقفهم من العالم والوجود . وقد برهن الروائي على قدرة كبرى حين استطاع ان يلج الى اعماق هذه المجموعة من الناس المختلفة الطبائع المتباينة الامزجة ، فظهر ما يميز بعضهم من بعض . وان الاختلافات الدقيقة والكبيرة التي تميز بين مخلوق واخر في الحياة تظهر جلية في هذه الرواية ، ويتخطى الروائي ، في اتسره هذا ، طريقه الروائيين التقليديين الذين يقدمون في رواياتهم انماط انسانية معينة محددة ، كما يتجاوز الطريقة التقليدية التي تجعل للرواية بطلا تدور حوله الاحداث ، فالبلط في هذه الرواية هو اولئك الاشخاص كلهم جميعا . بل لم لا تكون السفينة نفسها هي بطل الرواية ، فهي التي جمعت هؤلاء الاشخاص وهي التي انطلقت بهم وهي التي حطمت من حطمت منهم وعادت بمن عادت .

كذلك تتجلى قيمة هذه الرواية في تصوير الروائي لجوانب من الحياة العربية والمجتمع العربي بما يعتمل فيه من قيم وارث ببال ونظلمات واسواق دفينية وتمزق دام . ولا بد ان نلاحظ ان ابطال الرواية كلهم من المثقفين ، والرواية بهذا تقدم صورة لتمزق عدد من المثقفين العرب في يؤسهم وعجزهم عن مجابهة الواقع والحياة ، وفرارهم منها ، وخوفهم من السلطة (٢) التي تطاردهم بسبب معتقداتهم وافكارهم . وحين يتذكر القارئ الروايات العربية العديدة التي حاولت ان تصور بيئة المثقفين يدرك مدى نجاح هذه الرواية حيث اخفق كثير غيرها .

اما النغم الطافي المسيطر على الرواية كلها فهو تصوير الزيف . فالابطال لا يرون الزيف الذي يحيط بهم وحسب بل يعيشون هذا الزيف ، ويشكل لحمه حياتهم . ولعل هذا سر تمزقهم واضطرابهم وهربهم وانتحار الدكتور فالح على وجه التدقيق . فكل منهم يريد ان يصل الى هدف ما ، ويريد ان يعيش الحياة كما يريد ان يكون ، وينتهي به الامر الى غير ما يريد ، فيعيش هذا الواقع مكرها على

(١) السفينة ص : ١٩١ .

(٢) تراجع الصفحات التي صور فيها الروائي محمود الراشد في نوبة فزع وخوف اصابته حين رأى نمر المعجم في السفينة . ص : ١٤٠ وما يليها .

العيس فيه ، ويسبب له ذلك كله الالم الحاد ، نظرا لما يتمتع به من وعي وحساسية . وهكذا يسعى الى ايجاد مهرب له . ودبح عساف انتزع من ارضه ، من القدس . من الارض الصلبة كالصخر كما يقول ، وآل به الامر ، وهو الذي يجب ان يعيش في وطنه يزرع الارض وينجب الاطفال ويرسم اللوحات ، الى ان يصبح تاجرا في الكويت يمارس مهنة لا يحبها . وذات لى وعصام المنحايان لا يناح لهما ان يتزوجا لسبب زائف يرفضه المثقف ، كل مثقف . وتضطر لى الى ان تتزوج من رجل لا تحبه . وجد فيه اهلهما صفة رابحة فتشوه حياتها ، ويظل حيا لعصام الذي لا ينفى به الا نفاء عابرا ، لقاء الغريب ، وبذلك تكون علاقتها بزوجها زائفة ، وسنوه حياة الدكتور فالح الذي لم تمنحه زوجته الحنان والمحبة والاحلاص ، فيتعلق باميليا ، وهكذا فان الزيف الذي يكرهه اولئك جميعا يعيش في حياتهم ، واذا صحت مقولة القديس بولس بان كل ما لا يصدر عن فناعة فهو خطيئة ، فان الخطيئة هنا ، وبهذا المعنى ، تحيط بهؤلاء الاشخاص . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء الابطال اشقياء في حياتهم تصاء في اعماقهم ، فهم يعيشون في الجحيم او فيما يشبه الجحيم . ومن هنا نفهم معنى استعادة احد الابطال لما رآه داني مسطورا على بوابة الجحيم : « عن كل امل تخلوا ايها الداخلون هنا . »

ونود ان نجمل هنا الامور العديدة التي تعطي هذه الرواية قيمتها في مسار الرواية العربية .

اولها : الثقافة الفنية الواسعة التي نطالنا بها صفحات الرواية في مواضع عدة . ان ابطاله يتحدثون في شؤون الحياة احاديث ملوؤها العمق والتجربة ، ويتناقشون في امور الفلسفة والدين نقاشا فيه كثير من الجدية والمعرفة العميقة ، ويكشف ذلك كله عن ثقافة المؤلف الواسعة الشاملة في امور الفلسفة واللاهوت والادب والرسم والنحت والاثار والاساطير على نحو لا نعرف له نظيرا في الرواية العربية المعاصرة .

وثانيهما ذلك التكنيك الفني الجديد الذي ادخله جبرا ابراهيم جبرا الى الرواية العربية ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ، وذلك حين اختار هذه الطريقة المفعلة لعرض انحدث الروائي وتصور الاشخاص معتمدا على ضمائر المتكلم في السرد وعلى تقاطع هذه الضمائر ، والعودة بنا الى ماضي كل منها قبل الوصول الى نقطة التنازم والماساة . واذا كانت هذه الرواية تذكر بشيء فانها تذكر بروايات فوكتر ولا سيما روايته « ابا احتضاري » .

واخيرا فالى جانب النقاط السابقة هناك الاسلوب الذي كتب به جبرا ابراهيم جبرا روايته هذه . انه اسلوب مشرق مضيء ، تحمل الكلمات فيه شحنة كبيرة وقدرة على التعبير عن الخواج . والاسلوب هنا يسمو على النثرية والاداء التقريري الصحفي الذي كتبت به روايات عربية عديدة ، فالصورة تلمب دورا كبيرا في التعبير واداء المعنى . والجملة تفيض بمعناها بسبب المفردات الفنية المحملة بطاقة لغوية غنية . ان الروائي هنا يعيد الى الاسلوب واللفة دورهما المنسي في انشاء الادب والابداع الفني .

بهذا كله تشق رواية « السفينة » طريقها بين الدروب الجديدة التي سلكتها الرواية العربية في مسيرتها وتطورها .

جودج سالم

حلب

مكتبة النوري

دمشق - جها البريد العام
وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى
دور النشر اللبنانية والعربية في
القطر السوري .